من رحلة الشتاء

فى مضارب شمر

أكبر بيت من الشعر فى الجزيرة (موزو بتميا)

للآنسة زينب الحكيم

زرت جملة من بيوت البدو عاليها ومتوسطها وفقيرها . فوجدتها كلها تتحد فى نوعية النسيج التى صنعت منه ، وفى النظم التى اتبعت فى إقامتها منذ القدم

أما الفروق التى بينها ، فمن حيث الحجم وازدياد الأثاث ، وإن محتويات تلك الديار بسيطة ساذجة بوجه عام ، ولا تشمل إلا أهم الأدوات الضرورية للحياة المتقشفة . على أن من أكبرها وأعمرها وأكثرها تحضراً ، دار ملك البادية شيخ مشايخ شمر

زرت هذه الدار ، فاذا بها دار طويلة عريضة ، متينة الأوتاد قوية الحبال ، سوفهفة الجوانب . كلها من نسيج صوف الأغنام

لست أدرى أيجد الوسائل لتنفيذه أم تحول دونه الحوائل وتمنع منه الضرورات !

على أنى أكاد أو من بأن لهذه ليست هى الوسيلة للمحافظة على تراث الرافعى ؛ فليس من الوفاء الرافعى وحسن الرعية لأولاده أن نحمل عليهم هذا العبء وما انتفعوا من أبيهم بأكثر مما انتفع كل أديب وكل مسلم وكل عربى فى مصر وغيرها من بلاد العربية .

هل عرفت الحكومة المصرية أو عرف الأدباء فى مصر ما عليهم لأسرة الرافعى من حق قبل أن نحمل عليها هذا العبء إلى ما تنوء به من أعباء ؟ إنه عقوق وكفر وإنكار للجميل !

« شبرا » محمد سعيد العريان

* * *

١ — إجابة لرجاء القراء فى سوريا ولبنان والعراق ، قد جعلنا آخر الأجل لقبول الاشتراكات فى كتاب « حياة الرافعى » أول يناير سنة ١٩٣٩ ، وهو قريب من موعد صدور الكتاب إن شاء الله

٢ — ليس ما نشرناه فى الرسالة من هذه الفصول هو كل « حياة الرافعى » فان ما ينشر فى صحيفة غير ما ينشر فى كتاب « العريان »

والجمال ، على شكل دهليز طويل مقسم إلى حجر ، وهذا التقسيم إما بالنسيج أو بالحصير (السمار) ، وأرضها مفروشة بالأكلة أو بالسجاد العجمى الجميل أو بالحصير ؛ ويتبع هذه الدار على مسافة قريبة جدا منها دور أخرى ، منها مايختص بالمطبخ أو بالمخازن الخ

وصف الحجرة التى استقبلتنى السيدات فيها

خباء من الشعر فى أحد أطراف الدار عن يمين الداخل إليها طالما تخيلناه وتمنينا رؤيته ، وضع فى الجهة اليسرى منه نوع من السرير العريض ، عليه فراش وثير مغطى بغطاء من الحرير الخالص الملون . وإلى جانبه (شلت) زرابى مبثوثة على الأرض المغطاة بالسجاد العجمى ، وتحت السرير حقائب وصناديق ، تبينت فيما بعد أن بها ملابس وحليا ، وحلوى تقدم للزائرات

الشيخ عجيل الياور وأولاده بين زوارهم من المصريين
أمام بيت من بيوت الشعر الكبيرة فى المنقاط بالجزيرة

كانت السيدة الأولى التى استقبلتنى ابنة الشيخ عجيل الياور ، وهى فتاة رائعة الحسن : لون خمرى جميل ، وخد أسيل ، ولحظ كحيل ، ووجه مستدير عليه وشم قليل . إذا تكلمت فكأنما صوتها موسيقى الجنة العذبة الشجية قد انبعثت إلى عالمنا ، دلال فى وقار كالنسيم إذا سرى ، وكالزهر إذا تمايل

اسمها ملك وهى ملك حقا ، تفيض رقة إذا حدثت ، وتذوب عاطفة إذا استلهمت ، حياء فى غير تصنع ، وشم فى غير تكبر . عرفتنى بعدد من زوجات أبيها وأخيها ، كلهن كحيلات الطرف أو متكحلات ، يغطى الوشم الأخضر أجزاء من وجوههن وأجسامهن ، فمنهن من غطت كل ذقنها برسومه ، أو زججت

حاجبيها به ، ومنهن من وشمت شفتيها بحيث لا تظهر حمرتهما ، وإنما اندمج لون الوشم مع لون الشفاه فصار اللون أخضر داكنا. وبعضهن طرزن ثياب أعينهن برسوم غريبة ، هذا والحناء تخضب أناملهن وأكفهن وكوعهن

أما « ملك » فكانت فى زينتها وأناقتها تفوقهن جميعاً رقة ودقة وملاحة

سألتها كيف تمضى أوقاتها ، فقالت إنها لا تعمل شيئاً (هذا لأنها ابنة ملك البادية بالضرورة) قلت : ولكن ألا تضجرين ؟ قالت: بلى ، ولكن هنا ما كينة خياطة أخيط عليها أحيانا . قلت : وهل تقرئين وتكتبين؟ قالت فى عصاصة وألم : لا ، إنهم لم يعلمونى . قلت : وهل لك شقيقات؟ قالت: لا ، أنا وحيدة. قلت : إذن تفضلى معى إلى مصر وأكون أختا لك والدار دارك أنت . توهجت وجنتاها بالدم العربى النقى ولمعت عيناها ، وانحبست أنفاسها ، ثم قالت فى حرارة: لا يسمحون (تعنى أباها وأخاها) قلت: قد يسمحان، قالت : قولى لهما

وفعلاً سألت أخاها (لأن والدها كان قد سافر إلى بغداد) إذا كان مما يتمشى وتقاليدهم أن تسافر البنت إلى بغداد أو إلى مصر مثلا ، فقال: هذا ضد نظام العشائر. فسألته لماذا لا تتزوج « ملك » فقال : هي لا تريد ، ومن جهة أخرى حتى يتيسر من يناسب مقامها (فهمت من سياق الحديث أن الزواج هناك يجرى على أساس سياسى بحيث تصير بعده مصاهرات صداقة واكتساب قوة للعشيرة)

الملابس

أعجبت بثياب تلك البدوية ، فعزمت على أن أرتدى زيًّا كاملا منها حتى أصوِّر به. وأسرعت فأخرجت من صندوق تحت السرير ، ثوبين من الحرير أحدهما أحمر والآخر أخضر ، بأردان طويلة واسعة . فارتديت هذين الواحد فوق الآخر

ثم ارتديت معطفاً من الجوخ الثمين يقارب طول الثوبين ، وردنه طويل واسع مفتوح إلى نصف الذراع ، ثم ارتديت معطفاً ثانياً من الجوخ أيضاً أقصر من الأول وعلى نظامه فيما عدا ذلك ، وهما مزركشان بتطريز جميل . ووضعت على رأسى نوعين من الغطاء ، أحدهما رفيع والآخر سميك ، وحليت معصمى بجملة من الأساور الذهبية ، ووضعت على رأسى حليات ذهبية ، وعلقت فى شعرى قرب أذنى مثلثين من الذهب الخالص المطعم بالأحجار الكريمة ، لا يقل الواحد منهما عن نصف رطل

وطوقت جيدى بطوق من الذهب فى إحدى أطرافه حلية ذهبية دقيقة الصنع جميلة المنظر جداً . وفوق هذا كله ارتديت العباءة الصوفية الشفافة ، ثم العباءة الصوفية الثقيلة التى تستعمل فى الشتاء

شعرت أنى مشلولة الحركة ، ثقيلة الخطى ، لا أستطيع التنفس ، عكس ما تتمتع به صديقتى « ملك » البدوية التى تمتاز بخفة الحركة ورقتها . والانسان ابن العادة

الطعام الذى تناولته فى مضارب شمر

من أهم ما كنت أرقب مشاهدته ، تناول الطعام على الطريقة البدوية فى البادية ، ولما كان وصولى إلى مضارب الشيخ مجيل الياور بعد الظهر ، فانهم بالضرورة لم يعزموا على بتقديم الغداء ، ولا ينبغى أن نتصور أن أهل البادية يستطيعون إعداد طعام بالسرعة التى يؤدى بها هذا العمل فى الحضر

ويصعب جداً على نفس البدوى أن يظهر بغير المظهر اللائق به ، لا سيما أمام الزوار الأجانب ، أو أبناء العشائر الأخرى

وقد قدم لنا الشيخ الشاى الحار اللذيذ مع اللبن على طريقتنا نحن ، فكان أول فنجان من الشاى استسغت طعمه من مدة طويلة ، وقدم معه أنواعاً من البسكوت الجاف الأفرنجى

العشاء

وفى المساء ، حوالى الساعة الثامنة ، دعينا إلى تناول العشاء فى خيمة بيضاء كبيرة أقيمت فى وسطها مائدة أنيقة الترتيب أفرنجية . وكان الندل من العرب النجديين السود البشرة ، يقدم ألوان الطعام على أحدث نظام ، قلت : يا حضرة الشيخ ، ما لهذه النظم والقيود أتينا . قال : فى الصباح تأكلون على الطريقة البدوية . قلت: ولكننا نسافر فى الصباح الباكر ، قال: لا ، بل تبقون ثلاثة أيام على الأقل ، قلت : شكراً ، ولكن وقتنا محدود ، فقال : إذاً يكون الرحيل بعد الظهر

وجاء الصباح ، وجئنا حول مائدة الإفطار ، وكانت أيضاً

على أحدث نظام أوربي أنيق ؛ فقلت : حقاً لقد خسرنا القضية في هذه الرحلة ياحضرة الشيخ ، قال : لا ، الغداء سيكون بدوياً فلا تخاف ، وحقاً لقد كان

الغراء البدوى

انتشرنا بعد تناول طعام الفطور في البادية نستجلي مباهجها ، ونستكشف أزهارها، ونجمع أنواعها الغريبة ، ونبحث عن الكمأة «الكمء» — وهي نوع من الفطر ينمو تحت الأرض ، يشبه البطاطس ، ولا ورق له ولا فروع — يستعملها البدو كنوع من الخضار يطهى مثل البطاطس . وتجفف منه كميات كبيرة لفصل الصيف المجدب

عند الساعة الثانيـة عشرة ظهراً دعينا لركوب السيارات ، وإذا بها تسير بنا من حيث خيام الشيخ إلى قلب البادية ، فقطعنا نحو عشرة أميال على بساط سندسي جميل على أرض مستوية ثابتة ، حتى وصلنا مجرى ماء يجرى في مساحة طويلة وسط البادية . (كونته سيول الأمطار الغزيرة) وهناك وجدنا عبيد الشيخ ، قد فرشوا سجادة عجمية نفيسة حمراء اللون ، قرب مجرى الماء . ووضعت صينية كبيرة فضية وعليها صحن نحاس كبير ، ومعه أرز الزعفران المزخرف بالكشمش (أي الزبيب)

قال الشيخ : هكذا يكون أكل البدو ، وضرب بيمناه في الأرز المحشي به الحمل ، وأخذ منه كمية طيبة إلى فمه ، ثم بدأ يوزع علينا من اللحم الشهي . فكانت أكلة بدوية بحتة ، بين مظاهر الطبيعة الخلابة ، والنفوس العربية الكريمة والأيدى السخية

تفضل الشيخ فسمح لي باستخدام صحن خاص أضع فيه الكمية التي أستطيع أكلها ، وما كدت أنتهي منها حتى أمر النذل أن يضع لي كمية أخرى ، وما أرى إلا وقد حمل المغرفة وملأها بالأرز وفتات اللحم، ويتوى وضعها في صحني ، فقلت له: لا أريد مزيداً، أشكرك، فظل ممسكا المغرفة بيده الممدودة نحوى وقال : ولكنه أمرني (يعني أن سيده قال له ضع طعاماً السيدة) ومن سلوكه وتوخيه تنفيذ أمر شيخه المطاع ، شعرت ضمناً أنه يقول «من لم يمت بالسيف مات بغيره» ، وكبشة الندل كانت «غيره» على التحقيق . ما أشد إصرار البدوي ، وما أقوى عزيمته . قلت : حسن أطع أمر الشيخ بارك الله فيك . فوضع ما بالمغرفة في صحني وصار جذلاً

الآنسة زينب الحكيم بالوسط والشيخ صفوك الباور
إلى اليمين باليضاء مع الصيد

بعد أن تناولنا الفاكهة ، وغسلنا أيدينا بالماء الدافئ والصابون ، انطلقنا للصيد . وكانت محاولات الرماة كلها غير صائبة ، ما عدا الشيخ صفوك الباور ، فقد رأى ثلاثة من طير الحبارى الكبيرة ، فقال : لأرمينها ونحن في السيارة ، أسرع ياسائق ولا تتوقف أبداً أو تبطئ . وها هوذا يصيب طائرين من الثلاثة ، حملنا واحداً منها هدية لأصدقائنا في أربل ، فإن هذا الطير لذيذ الطعم بعد الطهي

وبذلك انتهت زيارتنا للبادية مع شديد الأسف

« لحديث بقية »

زينب الحكيم

طبـــق المرغوب

في هذا الفصل تتفشى الانفلونزا وارشوحات والأمراض الصدرية فتفرأ عن شتى الملاجات حتى تحار في أيها الأصلح . فلا تختار لديك اكس آي (Ex-Ail) روح الثوم الطبيعي — بلا رائحة ولا طعم اكتشفته معامل فوليا رزاسيون بفرنسا خصيصاً للأنفلونزا والدرج . أنت تعلم فوائد الثوم كما عرفها الأقدمون من ألوف السنين. حبوب اكس آي لا تشفيك فقط من الأنفلونزا بل تكسبك مناعة ضد النزلات الشعبية والمون الخ . لا تهمل نفسك. إسرع إلى اكس آي فتتقي شر الحمى والنزلات وشر البلية إذا لم تتقيها . في الأجزاخانات وعند دلار .